﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [الحجّ: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دلائلُ قدرةِ اللهِ في الكون تشهدُ بصدقِ تحقيقِ وعْـدِه بنُـصْرةِ المظلوم

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلها وجوهٌ، منها: بعد أنْ ذكر سبحانه وعدَهُ بنُصْرته للمظلوم؛ أتبعَ ذلك باستعراضِ دلائلِ قُدرته البالغة على كلِّ شيء، والتي تضمنُ تحقيقَ ذلك الوعدِ الوثيق، ومنها ما يتجلَّى في صفحاتِ الكون ونواميسِ الوجودِ من كَونِه سبحانه خالِقًا لِلَّيلِ والنَّهارِ، ومُتصَرِّفًا فيهما، قادِرًا عالِمًا بما يَجري فيهما، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾[1].

ومنها: بعد أنْ وعدَ اللهُ المؤمنينَ بالنَّصرِ على مَنْ بغى عليهم؛ بيَّن لهم أنَّه سُبحانَه مع ذلك النَّصرِ يُنعِمُ في الدُّنيا بما يَفعَلُهُ من تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وولوجِ أحَدِهما في الآخَرِ[2].

ومنها: بعد أنْ ذَكَرَ دفْعَ الباطلِ بالحقِّ، ونصرةَ اللهِ للمؤمنين الذين بُغي عليهم؛ صوَّر ذلك الدفعَ للباطلِ بإيلاجِ الليلِ في النهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ، فيُزاد هذا تارةً، وينقصُ أخرى، لكونِ النَّصرِ والهزيمةِ والقتالِ والقوَّةِ والضَّعفِ له دولةٌ بين الناسِ، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدلُّ على دُخولِ شَيْءٍ، يُقالُ: ولَجَ في مَنْزِلِه، ووَلَجَ البَيْتَ يَلِجُ وُلوجًا، والوَليجةُ: البِطانَةُ والدُّخَلاءُ[4]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 53.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23245.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5015.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولج).

والوُلوجُ: الدُّخولُ، والمَوْلَجُ: المَدْخَلُ، والوِلاجُ: البابُ، والوِلاجُ: الغامِضُ من الأرض والوادي، كلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيهِ - ولَيْسَ مِنْهُ - فهوَ وليجَة[1]، والوُلوجُ: الدُّخول في مضيقٍ[2]، ومعنى ﴿يُولِجُ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أيْ: يُدخِلُ.

2) ﴿سَمِيعٌ﴾: (سمع) أصلٌ واحدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بِالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، والسَّمْعُ: الذِّكرُ الجميلُ، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سمْعُهُ في النّاسِ، أيْ: صيتُهُ[3]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن بها تُدرَكُ الأصواتُ، وفِعلُهُ يُقالُ له: السَّمْعُ أيضًا، ويُعبَّر تارة بالسمع عن الأُذن، وتارةً عن فعله كالسَّماع، وتارةً عن الفهم، وتارةً عن الطاعةِ[4]، والمَسْمَع: المَوضع الَّذي يُسمع مِنْهُ، من قَولهم: هو منّي بمرأى ومَسْمَع، أيْ: حَيْثُ أراهُ، وأسمع كَلامه[5]، و﴿سَمِيعٌ﴾ اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى على وزنِ (فعيل)، وهو من أبنيةِ المبالغة، وهو لا يَعْزُبُ عن إدْراكِه مَسْموعٌ وإنْ خَفيَ، فهو يَسْمعُ بغير جارِحَةٍ[6].

3) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) أصْلانِ؛ أحَدُهُما بُصْرُ الشَّيْءِ غِلَظُهُ، الآخَرُ العلمُ بِالشَّيْءِ، ومنه البصيرةُ: البرهانُ، وأصلُ ذلك كلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ؛ إذا صِرْتَ بِهِ بَصيرًا عالِمًا، وأبْصَرْتُهُ؛ إذا رَأيْتَهُ[7]، فالبَصَرُ: العينُ، وقيلَ: البَصَرُ حاسَّةُ الرُّؤْيةِ، والبَصيرَةُ: العِبْرَةُ والحُجَّةُ والاسْتِبْصارُ في الشَّيْءِ[8]، والبَصَرُ يُقالُ للجارحةِ الناظرةِ، وللقوَّةِ التي فيها، ويُقالُ لقوَّةِ القلب المدركة: بصيرة وبصَر[9]، و﴿بَصِيرٌ﴾ اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، ومعناه: الذي يُشاهِدُ الأشياء كُلَّها ظاهِرَها وخافيَها بغير جارِحةٍ، والبَصَرُ في حَقِّهِ عبارةٌ عن الصِّفةِ التي يَنْكَشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَراتِ[10].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(2) الراغب، المفردات: (ولج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(4) الراغب، المفردات: (سمع)، والسمين، عمدة الحفاظ: 2/ 221.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سمع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) الراغب، المفردات: (بصر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نصرُ السَّميعِ البصيرِ للمظلومين سُنَّةٌ كونيَّةٌ ترتبطُ بنواميسِ الوجودِ الكبرى

يقولُ تعالى: ذلك النَّصرُ المَذكورُ - لِمَن بُغيَ عليه من النَّبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين، فأُخرجوا من ديارهم وأموالهم - نصرٌ كائنٌ بسَبَبِ أنَّ للّه كمالَ القدرةِ، فإنَّه قادرٌ على ما يشاء، ولا يَعجزُ عن نُصرةِ مَن شاء، ومِنْ قُدرتِه أنَّه يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ، وأنَّ له كذلك كمالَ العلمِ، فإنَّه سبحانه سَميعٌ لكُلِّ صَوتٍ، بصيرٌ بكُلِّ فعلٍ، لا يخفى عليه شَيءٌ، وهو الحافظُ لكلِّ ذلك، حتى يُجازيهم على ما عملوا من قولٍ وفعلٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بيانٌ لضمانِ اللهِ بتحقيقِ وعدِهِ الوثيقِ بنصرةِ المظلومِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾، عن قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ لكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى الكَلامِ السّابقِ الدّالِّ على تَكفُّلِ النَّصرِ، فإنَّ النَّصرَ يَقْتضي تَغليبَ أحَدِ الضِّدَّيْنِ على ضِدِّه، فضَرَبَ له مَثَلًا بتَغليبِ مُدَّةِ النَّهارِ على مُدَّةِ اللَّيلِ في بَعْضِ السَّنةِ، وتَغليبِ مُدَّةِ اللَّيلِ على مُدَّةِ النَّهارِ في بَعضِها؛ لِما تَقرَّرَ مِن اشتهارِ التَّضادِّ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، والتقديرُ: (ذلك النَّصرُ بأنَّ الله يولج الليل في النَّهار إلى آخره).

وقد يكونُ اسمُ الإشارةِ تَكريرًا لشَبيهِه السّابقِ لقَصدِ تَوكيدِه؛ لأنَّه مُتَّصِلٌ به، ولأنَّ جُملةَ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 675.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

﴿ذَٰلِكَ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ - اسمُ إشارةٍ للبعيد، تُستعملُ بعد إتمامِ المعنى والبَدْء والخوضِ في معنى جديد، أيْ: ذلك نصرُ اللّه لعبادِه المظلومين، وهو آيةٌ من آياتِ قدرته وعظمته، والإشارةُ إليه بما يدلُّ على البُعدِ؛ لعدمِ ذِكْرِ المُشارِ إليه صريحًا، وللإيذانِ بعلوِّ رتبةِ هذا النَّصر الكائنِ من اللّهِ الذي له كمالُ علمٍ وكمالُ قدرةٍ[1].

ما يكونُ مِن العظيمِ عظيمٌ

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ سببيَّةٌ، والسَّببُ ما دلَّ عليه ما بعدُ بطريقِ اللُّزوم، أيْ: ذلك النَّصرُ الموعودُ به المسلمون على الكافرين مع قلَّةِ المسلمينَ كائنٌ بسببِ أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على تغليبِ بعضِ مخلوقاتِه على بعضٍ، والمداولةِ بين الأشياءِ المتضادَّةِ، وبذلك هو قادرٌ على تغليبِ الضَّعيفِ على القويِّ[2]، أو كائنٌ بسببِ أنَّه تعالى خالقُ الليلِ والنَّهارِ ومُصرِّفُهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عبادِه من الخيرِ والشَّرِّ والبغيِ والانتصارِ، ولا يَبعدُ أنْ يكونَ المعنى: ذلك النَّصرُ كائنٌ بسببِ تعاقبِ الليل والنَّهار، وتناوبِ الأزمان والأدوار إلى أنْ يجيءَ الوقتُ الذي قدَّرَهُ الملكُ الجبّارُ لانتصارِ المظلوم وغلبته[3].

كمالُ قدرتِهِ سبحانه في توازنِ نواميسِ الكونِ عِلَّةُ إقامةِ العدلِ بين عباده

والإلصاقُ في الباءِ يُفْهِمُ قوَّةَ دلالة ما بعدها على ما قبل هذه الآية، فالاستدلالُ بمضمون هذه الآية - وما جرى في فلكها في اللِّحاق على ما هو مُستدلٌّ عليه في السِّباق القريب - عظيمٌ دقيقٌ بَيِّنٌ، ووراء هذا مِن المعنى إيناسُ المُتلقّين بمعاني المُستدَلِّ عليه في السباق.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.

غرضُ تتابع المؤكِّدات في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

مظاهرُه الكونيَّةُ نِعَمٌ عليَّةٌ

تتابعتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ مِن (أنَّ) التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّة التي تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام، وتكرارِ فعْل الإيلاج ﴿يُولِجُ﴾ الذي يفيدُ التَّنبيهَ على دلالة كلٍّ منهما عَلَى كمالِ قدرةِ اللّهِ[1]، وهذه المؤكِّداتُ تفيدُ المبالغةَ في تمامِ قدرةِ اللّهِ تعالى في إيلاج اللَّيلِ في النَّهارِ والعكس[2]، وفي هذه المبالغةِ تبشيرٌ قويٌّ للمؤمنين بنصرِ اللّهِ لهم على ما يتعرَّضون له من بغي وظلم، وهذه المؤكِّدات تُنبِّهُ المُتلقّين على ما في تلك الظّاهرة الكونيَّة مِن الإبداع والعجبِ والبراعةِ والغرابةِ؛ مِمّا يحتاجون معه إلى تثبيتٍ وتحقيقٍ وتوكيدٍ.

معنى (أنَّ) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ﴾:

كلُّ عظيمٍ في الكون يلفت بنفسه إليه

(أنَّ) - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ - حرفُ توكيدٍ، أكَّدَ قدرَةَ اللّهِ على إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ بكونها دليلًا على قدرةِ اللّه في نصرةِ أهلِ الإيمانِ الذين بُغي عليهم، أو بكونِها دليلًا على اتِّصافِ اللّهِ بصفتَي العفوِّ الغفورِ، فهو يتفضَّلُ على جميعِ الخلائقِ المُحسنِ منهم والمُسيء بتعاقبِ الليلِ والنَّهار[3]، وغرضُ هذا التَّوكيد توجيهُ النَّظرِ إلى تلكَ الظّاهرةِ الكونيَّةِ المكرورةِ التي يمرُّ عليها النّاسُ غافلين؛ ليفتحَ بصائرَهم ومشاعرهم على يدِ القدرةِ الإلهيَّةِ وعلى حلمِ اللّهِ وعفوِهِ ومغفرتِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُولِجُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سبحان مَن جلَّت صَنعتُه ودقَّتْ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿يُولِجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ دون (يُدخِلُ)؛ لأنَّ في الإيلاج زيادةَ معنًى عن مجرَّدِ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 81.

الدخول؛ إذ الولوجُ هو الدُّخولُ في مَضيق[1]، والدُّخولُ شيئًا فشيئًا، وما يؤدّي هذا الولوجُ بين شيئَيْن متضادَّيْن إلى غموضٍ في الزيادة في أحدهما، لا تُدركُ في أوَّلها، فلا يعرفها إلّا العلماءُ[2]، فالولاجُ: الغامِضُ من الأرض والوادي، وكلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيه - وليس منه - فهو وليجَة[3]، بما يُبرزُ بشكلٍ أكبر تمامَ قدرةِ اللّهِ سبحانه وبديعَ صنعِه في اختلافِ الليلِ والنَّهار وتعاقبِهما.

استمرارُ هذا الخَلْقِ الإلهيِّ وتكرُّرِه كلَّ يومٍ

وأمّا التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع؛ فهو يُنظر إلى مدلول مادَّته، وهذا ظاهر، وهو من تطابق المادَّة والصّيغة، وهو أيضًا يُفيد استمرار هذا الخَلْقِ الإلهيِّ وتكرُّرِه كلَّ يوم إلى أنْ يأذنَ اللّهُ بقيام السّاعة، في دقَّةٍ عجيبةٍ لا تختلُّ، وفي اطِّرادٍ عجيبٍ لا يتخلَّفُ، بما يؤكِّدُ تمامَ قدرةِ اللّه في خلقه، وأنَّ نصرَهُ كذلك لمن يقعُ عليه البغيُ، وهو يدفعُ عن نفسه العدوانَ سُنَّةٌ مُطَّردة كسُنَّةِ إيلاجِ الليل في النَّهار وإيلاجِ النهار في الليل، ولإفادةِ التَّصوير لهذه العمليَّة الكونية التي يراها الإنسان كلَّ يوم.

بلاغةُ الاستعارة ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

إنَّ في عناصر الكونِ لعبرةً لمَنْ يخشى

مثَّلَ البيانُ القرآنيُّ اختفاءَ ظلامِ اللَّيلِ عند ظهورِ نورِ النَّهار وعكسه بالإيلاجِ، وهو الإدخالُ؛ تشبيهًا لذلك التَّصيير بإدخالِ جسمٍ في جسمٍ آخر، فإيلاجُ الليلِ في النَّهارِ غشَيانُ ضوءِ النَّهار على ظلمةِ الليلِ، وإيلاجُ النَّهارِ في الليلِ غشَيانُ ظلمةِ الليلِ على ما كان من ضوءِ النَّهارِ، والمولَج هو المختَفي، فإيلاجُ الليلِ انقضاؤه، ولذلك فإنَّ استعارةَ الإيلاجِ هي استعارةٌ بديعةٌ؛ لأنَّ تقلُّصَ ظلمةِ الليلِ يحصلُ تدريجًا، وكذلك تقلُّصُ ضوءِ النَّهارِ يحصلُ تدريجًا، فأشبهَ ذلك إيلاجَ شيءٍ في شيء، إذ يبدو داخلًا فيه شيئًا فشيئًا[4].

(1) الراغب، المفردات: (ولج).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 214.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.

وفي هذه الاستعارة - التي جاءتْ في سياقِ الاستدلالِ بقدرةِ اللهِ على تعاقبِ اللَّيل والنَّهارِ على نصرةِ المظلومين - إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ ﷻ يزوي بقوَّته وقدرته - التي ليس كمثلها شيء - سلطانَ المُتجبِّرينَ، وينشرُ سلطانَ العادلينَ شيئًا فشيئًا، فهي سُنَّةٌ كونيَّةٌ كتلك السُّنَّة، يمرُّ عليها النّاسُ غافلين، كما يمرّونَ على دلائلِ القدرةِ في صفحةِ الكونِ، وهم لا يشعرون.

اللهُ يزوي سلطانَ المُتجبِّرينَ وينشرُ سلطانَ العادلينَ شيئًا فشيئًا

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ جنسيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: يشملُ الإيلاجُ جِنْسَ اللَّيلِ والنَّهارِ، أيْ: كلَّ ليلٍ ونهار، ولا يقتصرُ على ليلٍ معهودٍ دون ليلٍ، أو نهارٍ معهودٍ دون نهار، وهذا يدلُّ على تمام قدرته في سُنَّةِ تعاقبِ الليلِ والنَّهار، وفي سُنَّةِ انزواءِ سلطان المُتجبِّرين وانتشارِ سلطان العادلين في كلِّ زمانٍ ومكان، لا في زمانٍ دون زمانٍ ولا في مكانٍ دونَ مكان.

في اطِّراد نعمهِ اطِّرادُ إحسانه

بلاغةُ عطفِ إيلاج النَّهار في اللَّيل:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ إيلاجَ النَّهارِ في اللَّيلِ على إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ لتكتمل الصّورة المُرادة؛ للدَّلالة على المقصود المُستدَلِّ عليه؛ لإظهارِ كمالِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّة[1] الّتي يتحقَّقُ بها العدلُ في الدنيا، وللإشارةِ إلى أنَّها سُنَّةٌ كونيَّةٌ يتغلَّبُ فيها الظَّلامُ على النّورِ حينًا، ويتغلَّبُ النّورُ على الظلامِ حينًا آخر، وكذلك تعاقُبُ الحقِّ والباطلِ سنَّةٌ كونيَّةٌ ينتصرُ الباطلُ على الحقِّ حينًا، وينتصرُ الحقُّ على الباطلِ حينًا آخر؛ إذِ الدُّنيا دارُ امتحانٍ واختبارٍ، وذلك مستمرٌّ إلى أنْ تقومَ السّاعة ليتحقَّقَ العدلُ المطلقُ.

من أجلِّ أسرارِ الكونِ تفاعلُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.

نكتةُ العدولِ عن إيلاجِ أحدِ المُلَوَّين في الآخر:

سبحانه لم يقطع إحسانه حتى عن مُخالِفِه!

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن إيلاجِ أحد المَلَوَين (اللَّيل والنَّهار) في الآخرِ - رغم أنَّه أخْصَرُ - وأطنبَ بذكرِ إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النهارِ في الليلِ؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلٍّ منهما في الدَّلالةِ على كمالِ قدرتِه سبحانه[1]، وفي هذا إحاطة الدليل بالمستدَلِّ عليه، وهذا يوفِّر للمتلقّي إقناعًا جليلًا وترغيبًا شديدَيْن.

بلاغةُ تقديمِ إيلاج اللَّيل على إيلاج النّهار:

سبحان مَن أفْهَم بالكونِ مُرادَه!

ابتدأ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، أيْ: دُخولِ ظُلمةِ اللَّيلِ تحْتَ ضَوءِ النَّهارِ؛ للإشارة إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أيْ: ظُهورُ الدّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراكِ[2]، وفي هذا تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين بنصرةِ الدّينِ الحقِّ وظهوره، وتبكيتٌ للكافرينَ بأنَّ شركَهم زائلٌ أمامَ نورِ الإيمانِ والتوحيد.

بلاغةُ الطِّباق بين لفظتَي اللَّيل والنَّهار:

في القَرْنِ بينَ الأشياءِ يكمل ظهور الحقائق

جمعَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بين لفظَيْن متقابلَيْن في المعنى هما: الليل والنَّهار، بما يزيدُ الكلامَ حُسنًا، ويبرز كمال القدرةِ الإلهيَّةِ التي تشملُ الأشياءَ كلَّها، وتتعلَّقُ بالأفعالِ المتضادَّة، ولا تلزمُ طريقةً واحدةً كقدرة الصُّنّاعِ من البشر[3]، فهو القادرُ على جمعِ الضِّدَّيْن ووضعِ أحدهما مكانَ الآخر، وهذه القدرةُ الشّاملةُ التي دلَّتْ عليها المقابلةُ بين إيلاجِ الليلِ في النَّهار، وإيلاجِ النَّهار في الليلِ تشيرُ إلى مراعاةِ اللّهِ لمصالحِ العباد، إذ لو طالَ اللَّيلُ؛ لتعطَّلتْ مصالحُ العبادِ فيه، وكذلك الأمرُ بالنسبةِ للنهار[4].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 309.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(4) البقاعي، نظمُ الدُّرر: 13/ 80.

قد يصيرُ المغلوبُ غالبًا، ويصيرُ الغالبُ مغلوبًا

كما أنَّ في هذا الجمعِ والمقابلةِ إيماءً إلى تقلُّبِ أحوالِ الزَّمان، فقد يصيرُ المغلوبُ غالبًا، ويصيرُ ذلك الغالبُ مغلوبًا، وإدماجُ التَّنبيهِ بأنَّ العذابَ الذي استبطأه المشركون منوطٌ بحلولِ أجله، وما الأجلُ إلّا إيلاجُ ليلٍ في نهارٍ ونهارٍ في ليل[1].

أثـــرُ الـجـمـعِ بـين المـتـضـادّاتِ والمُتقابلاتِ

كما أنَّ في الجمع بين المتضادّات والمتقابلات ما يُحرِّك المُتلقّي إلى تأمُّل كلِّ طرَفٍ في نور مقابِلِهِ، ومِن شأن ذلك تمكينُ معاني السياق في النَّفس، وذلك إحسانٌ إلى المعنى والمتلقّي جميعًا.

معنى ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في الآية:

تفاعلُ عناصر الـكـون عـليٌّ عظيمٌ

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ ظرفيَّةٌ زمانيَّةٌ، تدلُّ على تغلغلِ إيلاجِ كلٍّ من الليلِ والنهار في الآخر، أيْ: يُدخلُ هذا في هذا مرَّةً، فيأخذُ منه، وهذا في هذا مرَّةً أخرى، فيأخذُ منه، فيزيدُ كلٌّ منهما في الآخَر[2]، والنَّتيجةُ تحصيلُ ظلمةِ هذا في مكانِ ضياءِ ذاك وبالعكس[3]، وهذا التَّمكينُ الذي تفيدهُ الظَّرفيَّة يَزيد بِهِ مِنْ بيانِ أثَرِ قُدْرَتِهِ تَعالَى الَّتي بِها النَّصرُ[4].

بلاغةُ الإدماجِ في تشبيهِ الكفرِ باللَّيلِ والإسلامِ بالنَّهار:

مِن خيرِ الكلامِ ما كـان سخيًّا عامرًا بالمعاني

في ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ في مقامِ الحديثِ عن العلاقةِ المتبادلةِ بينَ المؤمنين والكافرين، ووعْدِ اللّه بنصرِ المؤمنين على بغي الكافرين إدماجُ تَشبيهِ الكُفْرِ باللَّيلِ، والإسلامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ الكُفْرَ ضَلالةُ اعتقادٍ، فصاحِبُه مِثْلُ الَّذي يَمْشي في ظُلمةٍ، ولأنَّ الإيمانَ نورٌ يَتجلَّى به الحقُّ والاعتقادُ الصَّحيحُ، فصاحِبُه كالَّذي يَمْشي في النَّهارِ، وفي هذا الإدماجِ إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ولج).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 480.
(4) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 442.

هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أي: ظُهورُ الدّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراكِ[1].

معنى الواوِ في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ونكتة ذِكْرِها خلافًا للأصل:

كيف يَخاف مَن معه الله يسمع ويبصرُ؟

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على السَّبَبِ، وهو جملة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾[2] بجامعِ أنَّ قدرتَه على نواميسِ الكونِ، وعلمَهُ بما فيه كلاهما علَّةٌ لنُصرةِ عباده المظلومين، أي: إنَّ العطفَ يشيرُ إلى عِلمِ اللهِ بالأحوالِ كُلِّها مع قدرتِه عليها، فهو كما يَقدِرُ على ما لا يَقدِرُ عليه غَيرُهُ، فكذلك يُدرِكُ المَسموعَ والمُبصَرَ، ولا يخفى عنه شيء، وبذلك فهو يَنصُرُ مَن يَنصُرُه بعلمِه وحِكمَتِه، ويَعِدُ بالنَّصرِ مَن عَلِمَ أنَّه ناصِرُه لا محالةَ، فلا يَصدُرُ منه شَيءٌ إلّا عن حِكمةٍ[3].

نكتةُ إدخالِ فاصلةِ الآية في حيِّزِ السَّببيَّة:

أيُّ إحسانٍ في جعلِ نفسِه دليلًا يطمئن؟

دخولُ فاصلةِ الآية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ في حيِّزِ السَّببيَّةِ من خلالِ عطفها على ما قبلها، وهي إمّا أنْ تكونَ من بابِ التَّكميلِ وتتمَّةِ الحُكم؛ إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسبَبِ أنَّه قادرٌ؛ إذ لا بدَّ للنّاصرِ من القدرةِ على نصرةِ المظلومِ ومن العلم بأنَّه كذلك، بكونِه سميعًا بكلِّ المسموعاتِ التي من جملتها ما يقولُ المعاقِب، بَصيرٌ بكلِّ المبصراتِ التي من جملتها ما يقعُ منه من الأفعال، أو أنْ تكونَ من بابِ التَّتميم والتأكيد؛ إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسبَبِ أنَّه خالقُ اللَّيلِ والنَّهارِ ومُصرِّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخيرِ والشَّرِّ والبغيِ والإنصافِ، وأنَّه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لِما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5015.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 520، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

أكَّدَ السّياقُ القرآنيُّ جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ بعدَّةِ مؤكِّدات، هي حرفُ التوكيد (أنَّ)، والجملةُ الاسميَّة التي تفيدُ الثبوتَ والدوام، وصيغةُ المبالغةِ في الاسمَيْنِ الجليلَيْنِ اللَّذَيْن جاءا على وزن (فعيل)، وتكرار خبر الجملة الاسميَّة؛ إذ إنَّ ﴿بَصِيرٌ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ (أنَّ)، ودخولُ فاصلة الآية في حيِّزِ السَّببيَّةِ والتَّعليلِ لنصرِ الله، وفي تلك المُؤكِّدات لفتٌ إلى أنَّ كونه سميعًا بصيرًا ليس كمثلِهِ كونُ غيره سميعًا بصيرًا، فيتأكَّد هذا المعنى في النَّفس، ويقوى، ويشتدُّ، فاللهُ يعلمُ ما لا يعلمه غيره، فهو يدركُ المسموعَ والمبْصَر، ولا تخفى عليه من المشركين خافية في أحوالهم وحركاتهم[1].

سبحانه لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا يستترُ عنه شيءٌ بشيء

نكتةُ التَّذييل بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

ناسَبَ التَّذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ بالاسمَيْن الجليلَيْن (السميع) و(البصير) مضمونَ الآية، حيث إنَّ لفظَ السَّمع يتناسبُ مع لفظةِ اللَّيل، ولفظَ البصرِ مع لفظةِ النهار، وفي هذا دليلٌ على قدرةِ الله؛ لأنَّ الإنسانَ أحوجُ ما يكون إلى سكونِ اللَّيلِ ليسمعَ، ولضياءِ النهارِ ليبصرَ، ولو جعلَ اللهُ أحدهما سرمدًا؛ لتعطَّلتْ مصالح الإنسان، ولكنَّ اللهَ سميعٌ لِما يمكنُ أنْ يُسمعَ، مُبصرٌ عالمٌ لِما يمكن أنْ يُبصَرَ، دائمُ الاتِّصافِ بذلك، فهو غيرُ محتاج إلى سكونِ الليلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النهارِ ليُبصرَ؛ لأنَّه منُزَّهٌ عن الأعراض، وهو لتمامِ قدرته وعلمه لا يفوتُهُ أمرٌ في الليلِ والنَّهار[2].

دلَّ على الوجودِ؛ فدلَّ عليه الوجودُ

فائدةُ التَّرتيبِ ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

قدَّم القرآنُ صفةَ السَّميعِ على البصيرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لكونه أكثرَ مناسبةً مع ما تُقرِّره الآيةُ من قدرةِ اللهِ

سبحان مَن يُؤْنِسُ عبادَه؛ ولو كانوا عاصين له

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.

وعلمه سبحانه في صفحاتِ الكون، فهو لتمامِ قدرته وعلمه لا يخافُ في عفوهِ غائلة؛ إذِ التقدير: (ذلك النَّصرُ والعفو بأنَّه قادرٌ، وبأنَّه عالمٌ)[1]، فالسَّمعُ أشرفُ نعمًا وأعظمُ نفعًا من البصر[2].

كما أنَّ تقديمَهُ أنسبُ كذلك في نظمِ الكلامِ مع تقديمِ لفظِ الليل المناسبِ له، وتأخيرُ لفظِ البصرِ أنسبُ مع تأخيرِ لفظِ النَّهارِ المناسبِ له، وأنسبُ موافقةً لما جرى عليه اصطلاحُ القرآن من تقديمِ السَّمعِ على البصر[3]، وعملُ السَّمعِ عند البشر أسبقُ وأقوى من عمل البصرِ، أمّا كونه أسبقَ؛ فهذا ظاهرٌ، وأمّا كونه أقوى؛ فلأنَّ التفاوت في السَّمع قليلٌ ودقيقٌ جدًّا؛ فكأنَّه لا تفاوت، وأمّا التَّفاوت في البصر؛ فقويٌّ وكثيرٌ.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾:

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ لإفادةِ تعظيم هاتَيْن الصفتَيْن وعموم أثرهما، لا سيَّما وقد صيغتا بصيغة مبالغةٍ؛ فهو سبحانه سميعٌ لكلِّ المسموعاتِ، بصيرٌ بكلِّ المبصرات، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ من قولٍ أو نجوى، أو سرٍّ أو أخفى من السِّرِّ، أو فعلٍ ظاهرٍ أو باطنٍ.

سبحانَ مَن تعرَّفَ إلينا في كلِّ شيءٍ

دلالةُ المبالغةِ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾:

﴿سَمِيعٌۢ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ اسمانِ من أسماءِ اللّٰه تعالى، وكلاهما على وزن (فعيل) وهو من أبنيةِ المبالغة، فالسَّميعُ هو مَنْ لا يَعْزُبُ عن إدْراكِه مَسْموعٌ، وإن خَفيَ، فهو يَسْمعُ بغير جارِحَةٍ[4]، والبصيرُ هو مَن يُشاهِدُ الأشياءَ كُلَّها ظاهِرَها وخافيَها بغير جارِحةٍ، والبَصَرُ في حَقِّه عبارةٌ عن الصِّفةِ التي يَنْكَشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَراتِ[5]،

صيغةُ المبالغة صورةٌ مُقرِّبة لحقيقة الصِّفة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 9/ 451.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 184.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سمع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

وهذه المبالغةُ تدلُّ على سعةِ علمهِ المحيط سبحانه بما يُدخلُ الطُّمأنينةَ على قلوبِ المظلومين بأنَّه يعلمُ بحالهم، ويدخلُ التهديدَ والخوفَ على قلوبِ الظالمين بأنَّهم لا يخفون عنه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّخول والوُلوج:

الـدُّخـولُ أعـمُّ من الوُلوج؛ إذِ الوُلوجُ يكون مع المادّيِّ فحسب

يتقاربُ لفظا الدُّخولِ والولوج إلى درجةِ الترادف، ولا تكادُ تسعفنا المعاجم اللغويَّة بفروقٍ واضحةٍ بينهما؛ إذ يُعرَّفُ الولوجُ بالدخول، والدخولُ بالولوج[1]، إلا أنَّنا إذا أمعنا النَّظر في معانيهما واستعمالِ القرآن لهما؛ نلحظُ بعضَ الفروقِ الدقيقة، وإيضاح ذلك:

أصلُ الدُّخولِ هو الولوجُ، والدُّخول: نَقيضُ الخُروج[2].

وأصلُ الولوج يدلُّ على دُخولِ شَيْءٍ[3]، والوُلوجُ: الدُّخولُ، وكلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيهِ - ولَيْسَ مِنْهُ - فهوَ وليجَة[4]، والوُلوجُ: الدُّخول في مضيق[5].

وقد ورد الدخول في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، ومنها آياتُ دخولِ الجنَّةِ والنّار، ودخولِ البيتِ والقريةِ والأرضِ المقدَّسة، والدخولِ في رحمةِ الله، وغيرها من الآيات، وكلُّها فيها معنى اللُّبْث والمكوث، ووردَ الولوجُ في القرآن الكريم مع اللَّيلِ والنَّهارِ قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحجّ: 61]، وورد في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، والولوج هنا ليس فيه معنى المكوث واللُّبث، بل المُرادُ الاستمرارُ في الوُلوج، ولهذا لم يستعمل هنا لفظَ الدخول، وعندما استعمل الولوجَ مع

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دخل)، و(ولج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دخل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(5) الراغب، المُفردات: (ولج).

الأرضِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2]؛ قَرَنَهُ بفعلِ الخروج بعدها[1].

والحاصل أنَّ الدخولَ أعمُّ من الولوج؛ إذ يُستعملُ الدخولُ في الشَّيء المادي والمعنوي، والولوجُ يكون مع المادي فقط، والولوجُ يكون في مضيق، بينما الدُّخولُ يكونُ في الواسع وفي الضيق، كما أنَّ الولوجَ يكون دخولًا من مكانٍ، وخروجًا من مكانٍ آخر، بينما الدخول قد يكون من نفسِ المكان، وكذلك معنى الدُّخول يوحي معنى المكوثِ في المكانِ أو الشيء الذي يدخلُ فيه، بينما الولوجُ ليس فيه معنى المكوثِ، بل يبقى مُستمرًّا حتى يخرجَ من الجهة الأخرى.

(1) عبد الجبّار زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 522 - 523.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»